الفصل السادس والعشرون

جازان

يدخل طريق جازان، فيما يلي مزارع الدخن الواسعة الانتشار وحقول السمسم الغرا، والتي تعترضها سدود (مساطب) عديدة لتنظيم السيول التي يقال إنها متكررة وغزيرة، إلى شريط عريض لصحراء ذات شجيرات قصيرة وتكثر بينها شجيرة العلقا والحشائش المألوفة والتي تآكلت كتلتها بحركة السيارات خاصة خلال حملة عام ١٩٣٤م.

وصلنا إلى غابة أشجار السلم الكثيفة بعد سفر نصف ساعة من عند صبيا، وكانت هذه الأشجار تملأ تماماً المناطق السفلى الشبيهة بالدلتا لوادي ضمد، الذي ينحدر مخترقاً السهل من عند قاعدة كتلة فيفا. ثم يندفع الطريق عبر هذه الغابة ماراً ببئر تُسمى سلمة داخل مساحة واسعة مكشوفة داخل الغابة؛ وهي عبارة عن بناء صهريجي مستدير إلى مستوى الماء عند عمق خمس قامات، ثم يبرز الطريق إلى ما وراء الجانب الأيسر لمجرى ضمد ليتجه إلى سبخة واسعة مستوية، ينمو عليها العديد من لافندر البحر، ويبدو أنها كانت خليجاً صغيراً تابعاً للبحر، أو ربما كانت مجرى قديماً لضمد نفسه، ذلك لأن السيول الجبلية فوق هذا السهل الواسع المستوى قد تفعل الكثير وبأسلوبها الخاص. كانت كل هذه الأرض المستوية صلدة وقوية بما فيه الكفاية لتسمح بسرعة حركة ممتازة للسيارات، غير أن سلسلة من كثبان رملية -تدعى قوز، قوزان- منخفضة تقع قليلاً إلى الأمام، كانت قد اعترضت بين طريق السيارات وبين البحر، الذي بدأ لونه الأزرق العميق يشاهد فيما يليها. لم يكن هذا المسطح الصغير من الماء هو البحر نفسه، بل خليجاً كبيراً

يسمى قوز الجعافر والذي يجد الحماية من الجانب البعيد بواسطة نتوء طويل مستوٍ ومقوس من الرمال ومبطن من الجانب الداخلي بشريط طويل من مستنقعات أخدودية.

يعبر الطريق الآن بين كثيبين رمليين مرتفعين يسميان بيبان جازان (البوابات) ثم يصل إلى سلسلة رملية طويلة منخفضة تسمى المنجارة وهي تطوق آخر المسطحات الملحية التي تفصلنا عن النتوء الصخري لجازان نفسها. كانت هذه هي دلتا وادي جازان، وتقع داخلها إلى البعيد، على يسارنا وعكس اتجاه أعلى الوادي، كل من بئري الحفائر وعمير[1] إلى جانب ما لا حصر له من جمال القوافل ذهاباً وإياباً بينهما وبين البلدة التي تسحب كل حاجتها من المياه منهما، ذلك لأنه ليس بالبلدة آبار حلوة الماء. كانتى هاتان البئران محروستين بعدد من القلاع، تسمى إحداهما قلعة السبخة التي تحرس مدخل جازان عبر المسطح الملحي. وينحدر تل جازان فيما يلي ذلك إلى أسفل حافة البحر، حيث يوجد عرن يسمى المطلع، والذي يكون خط دفاع داخلي طبيعي.

لم يمض وقت طويل حتى كنا عند عتبة باب مقر سكن الحاكم، وذلك لتحية محمد بن مهدي قبل توجهنا إلى مركز القيادة الذي كان قد أعده سكناً لنا. لقد كان مقره بناءً حديثاً عند قاعدة محط السفن الوحيد الذي كان قد تم بناؤه بغرض أن يستخدمه الكتبة المراجعون لمصلحة الجوازات والجمارك، والذي أصبح الآن مقراً لإقامتنا المؤقتة في جازان، وسرعان ما قمت بتنصيب نفسي وممتلكاتي في غرف الطابق الأعلى، تاركاً الطابق الأرضي لرفاقي بينما ذهب رجال الجمال والمرشدون

(١) تعرف حالياً بالعميرية وهي نسبة إلى اسم حافرها وهو عمير، وللمزيد عن هذه البئر ينظر: العقيلي؛ مقاطعة جازان في ص٣٠٠. (المراجعون).

المحليون إلى أصدقائهم المختلفين أو أقاربهم في الأقسام الشبيهة بخلية النحل داخل البلدة. انتشرت هذه المساكن بصفة عامة من عند الجزء الرئيس للبلدة وإلى أعلى التل مكونة ضاحية كبيرة متعرجة، بينما شغلت المباني الحكومية والمستودعات الخاصة ومكاتب التجار وما شابه ذلك المنطقة المنخفضة التي تقع على واجهة البحر، وقد كانت كل المباني من الحجارة المغطاة بالجبس من الداخل والخارج.

كانت كل المباني متداعية والبناء الذي نشغله ليس بأوفر حظاً. إلاَّ أن موقعه كان مثالياً. لقد سيطرت نوافذ البناء في الطابق الذي كنت أشغله على منظر شمولي للميناء وخط الساحل الجذاب عند حافة التل الناتئ وإلى قمته. كان يرسو بالميناء في حينها حوالي ٣٠ من السنابك من أحجام مختلفة في المرسى أو كانت معلقَّة للصيانة كما كانت هنالك صناعة آلات صيانة للسفن نشطة في هذا الميناء. لقد ترتبت أكياس الدخن وبالات أوراق الدوم والقصب في أكوام على صدر الساحل في انتظار الشحن، ومعظمها كما يبدو كان في طريقه إلى عدن. وكانت مصوّع ميناء آخر على البحر الأحمر والتي تتعامل معها جازان تجارياً، وذلك بشحن حوالي ٢٥٠٠ جوال من ثمار الدوم كل سنة لأجل صناعة العاج المزيف. كما كان الدخن الذي رأيته هو آخر شحنة تغادر الساحل العربي ذلك لأن الحكومة السعودية قد فرضت حظراً يمنع تصدير كل الحبوب.

قدمت الحكومة أيضاً أموالاً لبناء مدرسة جميلة على ساحل البحر، تقع بعيدة عن الميناء، داخل تجويف رملي لطيف مكوناً انبعاجاً في الدائرة. لقد كان هذا هو أول انطباع لي عن جازان، وبعد أن نلت قسطاً من الراحة التي كنت أتطلع إليها وبعد أن قمت بالسباحة في البحر عند نهاية الرصيف، جلست في ردهة الحجرة أراقب الدقائق الأخيرة لشمس رمضان، وهي تتوقف ناحية أفق البحر الصافي ثم

تغوص في بطء من خلفه مع انطلاقة ختامية للشعاع الأخضر المألوف. لقد انتهى اليوم وانتهى كذلك شهر رمضان. ولقد صمنا فقط ٢٩ يوماً بدأت في ١٦ ديسمبر، في ذلك اليوم حينما استيقظنا في سيل غربان وسرنا إلى الحُرَجَةَ، غير أن الناس هنا في تهامة قد صاموا ثلاثين يوماً.

ما أروعه من هدوء حينما يوقظ المرء في الساعات الباكرة ليس لأمر ضروري ومهم، ولكن لتناول طعام غداء غير مرغوب! وياله من كرم أن يجد المرء براد الشاي بجوار سريره حين يستيقظ من نومه، ويجد غليوناً ليدخنه في سلم وأمان قبل أن يعد المرء نفسه لمناشط اليوم التي بدأت في حالتي بغطسة في البحر. لقد اختفت كل الأحاسيس بالتعب التي كانت قد تراكمت خلال الأيام الماضية وبلمسة عصا سحرية، ولقد كان من الممتع أن يرتدي المرء أزياء نظيفة من قماش اللينن مرة أخرى. ثم توجهنا عند الساعة السابعة صباحاً من يوم الأحد، أنا ورفاقي، وقد كنا في أجمل ملابسنا ضمن الحشد المتعدد الألوان المبتهج إلى موقع التجمع بجوار المصلى، أو مكان صلاة العيد للشكر لله على إتمام صيام آخر قد أضيف إلى سجل حسنات المرء. كان المكان واسعاً ويقع بين الحدود الخارجية للعشش الشبيهة بخلايا النحل ومناجم الملح المحلية.

وكانت الأرضية من رمل أبيض، ولا يدل على الغرض من هذا التجمع الذي يحدث مرتين في السنة إلاَّ وجود محراب الصلاة المبني والمنبر. وانتهت الصلاة القصيرة، بخطبة طويلة حتى الإملال، كان قد ألقاها القاضي المحلي، وهو رجل طويل، كثيف اللحية، جميل المحيا، بصوت مريح وموسيقي، وكانت المناسبة عظيمة لكل الأطفال الحاضرين، وهو أول حضور لهم لصلاة جماعة بعد أول تجربة لهم مع الصيام. إن الإسلام رؤوف بالأطفال ولا يصر على صيامهم أو الالتزام بأوقات الصلاة الفرضية، ولكن عندما يبدؤون هم بدافع ذاتي، أو طاعة لوالديهم فلا عودة

بعد ذلك، وعليهم أن يتصرفوا بصفتهم رجالاً في كل أمور الطاعة الدينية. إن تأكيدهم للعقيدة بمحض رغبتهم المستقلة، يضع على عاتقهم الالتزام الذي يجب ألا يتم تجاهله بغرض الإفلات من العقوبة. كانت ملابس كل الأطفال قد تزينت بألوان قوس قزح، وهي مصنوعة من الحرير أو الستن إلى جانب أغطية الرأس الجديدة وكان كل الرجال قد ارتدوا أحسن ما لديهم، على مستوى الأمير وأتباعه في منتصف الصف الأمامي، إلى أفقر عامل في الموانى أو معادن الملح.

أشرف الأمير بعد الصلاة على مراسيم الاستقبال الرسمي للكل، وذلك في الفناء الواسع في مقر سكنه المتداعي. لقد احتلَّ القاضي موقع الشرف بجلوسه على يمين الأمير، بينما جلس إلى يساره أحد سادة الأدارسة. ثم قدمت فناجين القهوة وأكواب الشاي بالطريقة المألوفة عبر التاريخ وكانت المحادثات متقطعة، غير أن أكثر الفقرات التي كانت قدمت أثناء التجمع قد قوبلت باستحسان، كانت قصيدة جيدة فوق المعتاد، ألقاها الشاعر علي السنوسي الذي ربما كان ينتمي بقرابة بعيدة إلى أسرة السنوسي. ثم دعا الأمير كل الحضور بعد ذلك لتناول وليمة العيد التي تألفت من لحم ضأن ممتاز وأرز وقد وضعت في أنحاء الغرفة في حوالي عشرين من الأطباق ذات الأرجل. انتهت بذلك المهمة الرسمية، ويستطيع كل الحشد أن يتجول بحرية متنقلاً من منزل لآخر في زيارة الأصدقاء أو الموظفين للتهنئة بهذه المناسبة العظيمة ولتذوق ما لديهم من قهوة وحلوى.

قمت بزيارات لعدد من الموظفين الرئيسيين، كان من بينهم عبدالعزيز الضميري، وهو رئيس مصلحة المالية المحلي، وصالح بن إبراهيم النفيسي، مدير الشرطة، وعبدالله البسام وهو صديق قديم لي من أيام مكة ويشغل الآن وظيفة ضابط الميناء وهي وظيفة مهمَّة، ثم قمت إلى جانب هؤلاء بزيارة حسن البهكلي، وهو رئيس الشركة، والذي كنت قد ذكرت ممثلّه في صبيا من قبل، كما رأيت

وصول قافلة صغيرة من الحمير أثناء وجودي في منزله في السوق. وقد جلبت معها المؤنة اليومية من نبات القات الطازج وقد تمَّ لفها في أوراق أشجار الموز الباردة. وستكون لي فرصة أخرى للحديث عن هذا المخدر المحلي الجبلي بتفاصيل أكثر. لقد اكتفيت هذه اللحظة بتذوق قطعة منه، ولم تكن مثيرة للاهتمام، وقد وعدني مضيفي أنه سيمنحني الفرصة ذات يوم لحضور جلسة للنادي المحلي لآكلي القات وذلك لكي أمنح العشب القيم جداً، التجربة الصحيحة تحت الظروف المناسبة لذلك. لقد تحدثنا حول هذا الموضوع أثناء اجتماعنا بالأمير، حينها أعلن القاضي بدون تقيد، أن النبات ليس محرماً ويمكن تعاطيه دون إخلال ديني. لقد كانت كل السفن رافعة أعلامها لأجل مناسبة العيد، وكان بعضها قد رفع أعلامه إلى علو عظيم، واكتسى البعض الآخر منها بأقمشة بهيجة تصنع منها الرايات إلى جانب الأعلام المختلفة الوطنية التي ترفرف فوق مؤخراتها. كما تحمل معظم السنابك العلم السعودي ويرفع غيرها العلم الأحمر اليمني، كما قد رفع القليل منها ولعله من مصوَّع العلم الإيطالي، ثم أطلقت المدافع التي تقع بجوار القلعة من فوق الجبل تحياتها وعلى فترات وذلك بعد صلاة العيد ثم واصلت ذلك أثناء اليوم وعند مواعيد الصلاة. لقد كان صباحاً مرحاً وممتعاً بالنسبة لي، وقد خذلني شيء واحد، هو البريد الذي كنت أظن أنه قد تراكم بانتظاري، ولكنه لم يصل بعد.

قمت بمرافقة مدير الشرطة لزيارة القلعة التي تقع على رأس التل بعد أن نلت شيئاً من الراحة كما قمت بإطلاق النار على طيور النورس وغيرها من طيور البحر التي كانت تملأ صدر البحر والميناء. لقد تمَّ بناء هذه القلعة قبل أربع سنوات تحت إشراف الحكومة السعودية، حسب التصميم الذي أعده خالد القرقني[1] وهو من

(١) ويعرف أيضاً بخالد أبو الوليد، وكان من قبل يعرف بخالد الهود ثم تسمى بخالد القرقني نسبة لجزيرة قرقنة، من جزر البحر الأبيض المتوسط القريبة من طرابلس الغرب واسمه الكامل خالد بن أحمد بن عياد آل هود. (المراجعون).

أبناء طرابلس والذي ظلَّ على رأس العمل عند ابن سعود مدة طويلة يشغل وظيفة وزير بلا وزارة، وشارك في التصميم مهندس نجدي يسمى القفيدي. وتحتل القلعة موقعاً مسيطراً على قمة التل بلا شك، وقد بنيت من الصخر المحلي الذي كان قد قطع من جوارها، وهي عموماً بناء جيد التركيب مفصلة من الداخل بأجنحة مريحة للحامية الدائمة إلى جانب حوض كبير منحوت في الصخر لتخزين مياه الشرب التي يتم جلبها من آبار عمير التي قيل إنَّ مياهها أكثر حلاوة من مياه الحفائر. تتألف قوة الشرطة التي يرأسها صالح النفيسي من ٥٠٠ رجل منتشرين في مساحات كبيرة من بلاد تهامة، منخفضها ومرتفعها. لقد كانت فرقة شرطة جازان مكونة من مئة من الضباط والرجال، وقد تبادل أداء الواجب في هذه القلعة حوالي ثلاثين منهم. كما كانت هنالك مراكز أخرى تحتوي على قوة من ٢٠ إلى ٣٠ رجلاً، والذين كانوا يترددون على جازان لأجل التغيير من مراكز القيادة في كل من الحقو وصبيا، والعارضة، وفيفا، والموسم، وصامطة، وبني مالك، وجبل حارس، وأبو عريش، وجزر فرسان، ووعتان، والخوبه، وبالغازي، والشقيق، وقنا وعل البحر والقحمة، التي تقع إلى البعيد ناحية الشمال على الساحل.

لا تعد قوة شرطة مكوَّنة من ٥٠٠ رجل كبيرة لمثل هذه البلاد الواسعة غير أنني أعتقد أن مهمتهم كانت سهلة في حفظ الأمن وذلك لأن سمعة ابن سعود وحدها كانت كافية لإسكات المخطئين. إلاَّ أنه قد تحدث برغم ذلك بعض المشاكل وقد علمت أنه خلال شهر رمضان قد تمَّ قطع رأسي رجلين من رجال القبائل وتمَّ ذلك علناً في جازان وبحكم القاضي، وذلك لعلاقتهما بجريمة قتل كانت قد وقعت في جبال تهامة. ينتمي صالح نفسه إلى أسرته المشهورة في القصيم وكان موطنه هو قرية الخضراء بالقرب من بريدة وهو حفيد لعبدالله النفيسى الذي كان وكيلاً لابن سعود في

المجالين الدبلوماسي والتجاري في الكويت مـدة امتدت إلى ثلاثين عاماً. إنني أتذكره على أي حال في عام ١٩١٧م وهو هناك، وذلك عندما تدعمت ثقة مليكه فيها.

يبـدو أن أصل النتـوء الصـخـري لجـازان هو من قـبـة ملح مـثله مـثل كل الظواهرالمماثلة في جنوب الجـزيرة العربية ولربما كذلك في جزر فـرسان التي كانت أعمدة الملـح فيها تغوص إلـى أعماق بعيدة، كـما لاحظ ذلك مهندسـو شركة شل حينما كانوا يبـحثون عن النفط بإذن من الإدريسي قبل قدوم الحكم السـعودي. كما يقع شريط من الجبس فوق طبقة الملح هذه في هذا النتوء الصخري، ويبدو أنها تمتد إلى القمة، وتكون بالقرب منها صـخرة صلدة تصلح لعمليات البناء. لم يزد ارتفاع التل عن ١٠٠ قـدم فوق سطح البحـر، ويشغل مـساحـة تقدر بـ ٢ إلى ٣ أمـيال مربعة.

ولم تكن تلك القلعة السابقة التي كان قـد أنشأها الإدريسي على القمة ولكنها منفصلة وتقع قليلاً إلى غـرب القلعة السعودية، ويقود إليهـا طريق جيد من البلدة، والذي لا بد أن يكون قـد استـخـدم لنقل إحدى المدافع الإيـطالية في يوم مـا إلى موقعـها هناك خارج أطلال القلعة التـقليدية، حيث لا تزال موجـودة لتكون تذكاراً لنظام قد انطوى. كمـا توجد على أي حال قلعة ثالثة إلى أسـفل، عند قاعدة التل وقريباً من مستوى البحر على بعد ٢٠٠ ياردة من حاجز الماء. كانت هذه هي القلعة الأصلية التـي أسسهـا الأشراف، وكانوا هم الحكـام الفعليين للمنطقـة حين وصول الإدريسي الأول من إفـريقيـا بين عامي ١٨٤٠م و١٨٥٠م، والتي كـان قد احتـلها الأتراك حينما قدموا إلى عسير واليمن بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ، وكان ذلك نتيجـة طبيعية لافتـتاح قناة السويس. لقد كان محـيط جازان مبرقعاً بمراكـز المراقبة الصغـيرة إلى جـانب هذه القلاع المركزية العـظيمة، وذلك عند كل منـاطق النقاط

الرئيسة. وكان واحد منها يقف على مطلع عرن، وآخر يحرس معادن الملح، كما كان آخر يسيطر على تقاطع الطريق عند الدلتا (قلعة سبخه)، كما كان هنالك اثنان لحراسة آبار كل من الحفائر وعمير، ويوجد آخر على الكورنيش (قلعة بحرية) وأخيراً تقع قلعة عشيمة على الجانب الداخلي الجنوبي للنتوء. لقد كانت جازان جيدة الحماية، بينما توجد إلى مسافة ناحية الجنوب وعلى طريق اليمن وعند قرية المضايا قلعة أخرى تعود إلى أيام الإدريسي.

كان اسم مؤسس نظام الإدريسي في جازان هو أحمد الإدريسي[١] الذي قدم إلى الجزيرة العربية –ويجب تذكُّر هذا– من قارة أفريقيا، ولم يأت وهو غازياً وإنما جاء بصفته رجل دين مشهوراً ومدرساً. لقد كان نظامه في عزلته الاختيارية روحياً مستديماً في صفته ولم يكن دينياً مؤقتاً، غير أن البلاد كانت حينها بلا قائد وكانت غير متماسكة مما دفع الناس إلى أن يقوموا بزيارته لإقامة العدل بينهم وبين قبائلهم وقد أخذوا يندفعون إليه أفواجاً بسبب تفوقه الروحي، وقد أحاطته هذه التوجهات بالضرورة، وبمرور الوقت بزخارف من السلطة شبه المؤقتة. ولم يحاول الإدريسي الأصل أو ابناه الاثنان بالرغبة في تحدي السلطة المؤقتة للأشراف، إلاَّ أن النظام التركي كان هو الذي أزاح الأشراف عن السرج، تاركاً للإدريسي سلطته الروحية وهيبته دون تدخُّل. لقد استمرَّ هذا الوضع حتى عام ١٩٠٨م أو ١٩٠٩م حينما أصرَّ الأتراك على تحجيم أمور الشرع أو القانون الشرعي في محاباة لقوانينهم الوضعية، وقد قاد هذا إلى الكثير من المتاعب في كل من اليمن وعسير. لقد اضطرَّ الأتراك للانسحاب مؤقتاً من عسير في وجه التمرد الذي وقع، وانتهز محمد

(١) هو من أتباع الطريقة الصوفية الأحمدية من مدينة القيروان، استقرَّ في صبيا سنة ١٨٢٩م، بعد فترة طويلة من التنقل بين مصر ومكة واليمن. أما عن علاقة الأدارسة مع اليمن وعسير والدولة السعودية فيمكن الرجوع إلى كتاب «تاريخ المخلاف السليماني» لمحمد أحمد العقيلي. (المراجعون).

ابن علي -وهو الحفيد الأكبر لأحمد الإدريسي- هذه الفرصة التي أتاحها هذا الموقف لإقامة دولة مؤقتة كان هو أول حكامها. ثم توصَّل سريعاً إلى تفاهم ما مع الأتراك كما ساعد مادياً على دخول الشريف حسين إلى أبها لنجدة الحامية التركية هناك، ولم يكن هذا إلاَّ التصاقاً جسدياً صعباً، وذلك لأنه خلال الحرب العظمى -وبعد ثورة الحجاز- قام الإدريسي بإعلان الحرب على الأتراك ونال اعترافاً بريطانيَّاً بوصفه حاكماً مؤقتاً على المخلاف السليماني أو جازان. ثم الاعتراف بالإدريسي سيداً على كل جنوب تهامة حتى الحديدة، وكان ذلك عندما ترك الأتراك الجزيرة العربية عام ١٩١٩م وإلى الأبد تحت شروط الهدنة.

لم يكن هذا الترتيب مريحاً للإمام يحيى، الذي -في غياب القوات البريطانية لحماية مرشحهم- لم يجد صعوبة في إخراج الإدريسي من الحديدة وإلى خارج تهامة اليمن إلى موقعه الصحيح شمال ميدي. لقد حدث هذا عام ١٩٢١م، وقد توفي محمد الإدريسي في العام التالي[(١)]، تاركاً عرشه غير الثابت لابنه الشاب عديم الخبرة واسمه علي، الذي كنت قد أشرت إلى خبرته من قبل. لقد استمرَّت سلالة الإدريسي، وبرغم كل السلطة التي استمتعت بها لأكثر من ٧٠ عاماً وذلك بسبب اعتبارهم الديني، استمرت لمدة ١٧ عاماً فقط في السيطرة الفعلية على القوة السياسية. لقد فقد الأدارسة الآن كلاً من الظل والأصل للسلطة وأن من تبقى من أفرادها الذين قد سمح لهم بالسكن في جازان، مثل سيد العابد، والذي كنت قد قابلته في حفل العيد الذي أقامه الحاكم وقابلته مرة أخرى في منازل أخرى، فإنهم يتصرَّفون كمواطنين عاديين دون عمل مدني أو ديني وعلى معاش تدفعه لهم الحكومة السعودية. كان بقيتهم بالطبع يقيمون في المنفى، ولربما كان من المفيد أن

(١) الصحيح أن الإدريسي هذا توفي في شهر نيسان من عام ١٩٢٣م، وكان قد ولد عام ١٨٧٦م. (المراجعون).

نسجل للتاريخ الأجيال التي خـرجت من صلب الإدريسي الأول الذي كان قد عاد لزيارة أرض أسلافهم الذين هربوا من الجزيرة العربيـة بعد هزيمتهم في معركة الفخ بالقرب من مكة في زمن هارون الرشيد.

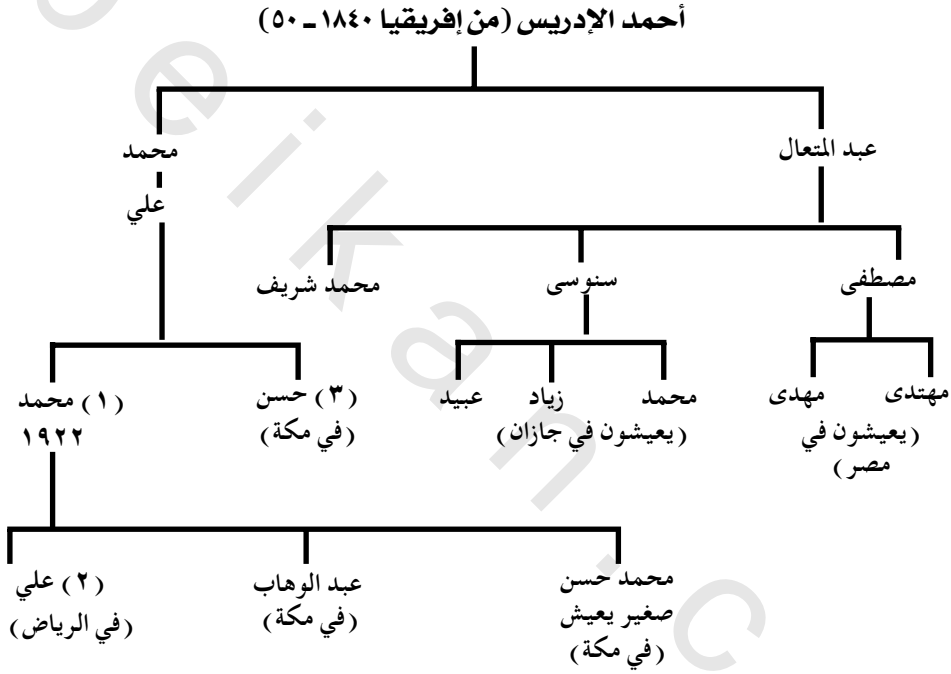

ملحوظة: الأرقـام ١و٢و٣ تشير إلى الحكام السـياسيين في هذه الأسرة. لقـد أبعد رقم (٢) عام ١٩٢٦م وعين مكانه رقم (٣) الذي أبعد عام ١٩٣٠م لقـد أدى السيد مصطفى دوراً مهـماً في المفـاوضات بين البـريطانيين والإدريسي أثناء الحرب العظـمى وهو يعيش حـالياً في مصر، وقد توفي هناك قبل عام ١٩٣٦م.

كانت الصناعة الرئيسة في جازان، إلى جانب بناء السفن ومناشط ذات علاقة بالبحر، هي بالطبع معادن الملح. ويتكون كل الجزء الأسفل من النتوء الجبلي من صخر ملحي ممتاز. وقد أقيم فيه معدن ضخم تحت سيطرة وملكية الحكومة. كما يوجد بالقرب من مداخل مواقع العمل، مخزن متداعي يحتوي على ما مقداره حمولة حوالي ٧٠ جملاً من الملح المعبأ الجاهز للتوزيع. ويحتوي كل كيس على حوالي ٩٢ عق ٤٠٠ درهم أو ٢,٥ رطلين ونصف الرطل بالتقريب، وتتكون حمولة الجمل من كيسين، أو ما يعادل ٤٦٠ رطلاً، وقد تم صنع الأكياس محلياً من الحصير الخشن. وتقوم الحكومة ببيع الملح مباشرة للتجار بسعر ثلاثة ريالات للحمل الواحد زائداً نصف ريال لاستخراج شهادة البيع، بما يعادل ريالاً واحداً لكل ١٤١ رطلاً وعلى المشتري أن يحاول الحصول على أفضل الأسعار في الأسواق المحلية التي يستطيع الوصول إليها.

يكون هؤلاء السماسرة من البدو الذين يعملون في نقل الأحمال على جمالهم، وكانت هنالك مجموعة منهم شاهدتهم أثناء زيارتي هذه، من قرية المسارحه مما يلي أبو عريش وهم يقومون بتحميل جمالهم بما كانوا قد اشتروه. ولا يوجد تصدير لهذه المادة عن طريق البحر. كما توجد غرفة عليا أعلى المخزن يعمل فيها الكتبة الذين يدونون هذه المعاملات، إلاَّ أن هذه الغرفة قد هجرت منذ زمن، مفضلين عليها عشة من الأعواد تقع قريباً من الموقع وتؤمن وقاية أفضل من حرارة الشمس.

كان المعدن الفعلي عبارة عن حفرة كبيرة أبعادها ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ ياردة ويختلف عمقها ما بين ٣٠ إلى ٤٠ قدماً، وتمثل أسلوب التعدين الذي كان متبعاً لعدة أجيال ولعدة قرون. كان عمق التربة المكشوفة حوالي ٢٠ قدماً وتعلوها طبقة من الرَمْل ذات لون بني داكن، ولربما كانت هذه تمثل طبقة الجبس المتآكلة السفلى،

والتي تكون إلى مسافة أعلى، صخرة جميلة صلدة شبيهة بالرخام. ينتمي كل من الملح والجبس إلى العصر الميوسيني[١] مع عدد من الصدوع يخترق الحنبرة كما تأكدت من ذلك لاحقاً من جهات متخصصة. ويتم تفكيك السطح الملحي باستخدام أصابع الديناميت التي توضع داخل ثقوب تعد بالمثقاب، ثم تجمع بعد ذلك الكتل المكسرة من الصخر الملحي داخل الأكياس دون أي محاولة لتشذيبها. ويكون الناتج الثانوي للمعدن هو نوع من الملح الخشن الذي تكون بعامل التبخُّر في قاع الحفرة بعد الأمطار أو السيول. وكان هذا الناتج يباع في السابق بسعر ريال واحد مقابل ثماني صفائح عبوة أربعة جوالين جازولين فارغة، لمناطق تمليح وتجفيف الأسماك غير أن الحكومة السعودية أوقفت هذا التعامل مع الملح الرديء لتدفع بمجففي الأسماك أن يشتروا الصخر الملحي المرتفع الثمن الذي تقدر مبيعاته الشهرية بحوالي ٥٠٠ جمل أو ١٠٠ طن تقريباً، ويكون دخله لمصلحة المالية حوالي ١٧٥٠ ريالاً.

يمثل إنتاج كل من الكلس (النورة) وجبس الجص (جبس) من خام الجبس المحلي صناعة أخرى مهمة في جازان. وتستخدم هذه المواد في معظم الحالات محلياً في الميناء نفسه وفي كل من صبيا وأبو عريش ومراكز أخرى. كانت اليابان هي المورد الرئيس لمعظم واردات البلدة، وخاصة البضائع التي تباع بالقطعة، والخردوات الرخيصة والمواد الغذائية مثل الأناناس المعلَّب – بسعر ٩,٥ ريالات لصندوق يحتوي على ٤٨ علبة عبوة رطل واحد–، ولبن الكرميلة – ٧ أرطال لكل ٣,٧٥ ريالات –، والترامس اليابانية – بسعر ٢,٢٥ ريالين للترمس الواحد–

(١) عصر جيولوجي يمتد من حوالي ٢٥–٣٠ مليون سنة وخلاله انفصلت الجزيرة العربية عن القارة الأفريقية. (المراجعون).

غير أنها لم تكن جيدة الصناعة مقارنة بالمواد الرخيصة من المصدر نفسه، التي تباع في موانى حضرموت.

حافظت الحكومة السعودية -كنوع من التنازل على سبيل الاتفاق، وكتقليد قديم، وإحساساً بحالة السكان الفقراء- على نظام الضرائب أو الجمارك القديم والذي يعادل ٨٪ من القيمة، مع تحديد نسب خاصة تتراوح ما بين ١٠٪ و١٢٪ على البضائع الكمالية مثل مواد الحرير، وبين ٢٠ - ٢٥٪ على التبغ والسجاير حسب أنواعها. على أن يدفع الفرق بين الجمرك المحلي وبين التعرفة السعودية على كل البضائع التي يعاد تصديرها من جازان إلى منطقة الحجاز أو منطقة أبها، وذلك عند مراكز المراقبة في منطقة رجال ألمع أو في أبها أو في موانى الحجاز طبقاً للحالة. وتمر كل البضائع التي تأتي عن طريق البحر إلى جازان عبر عدن ويتم تخليصها هناك على ظهر بواخر صغيرة بواسطة وكلاء للتجار المحليين. ولا تستطيع السفن الكبيرة الوصول إلى ميناء جازان؛ وذلك لوجود حيد بحري رملي يكون بارزاً فوق سطح البحر، وذلك عند انخفاض المد ويمتد شمالاً عبر المدخل عند الطرف البعيد للنتوء؛ كما توجد فجوة في هذا الحيد تسمح للقوارب الصغيرة بالعبور ويبلغ عرضها ٥٠٠ ياردة وهي جزء من اللسان.

ويتعرض البحر على امتداد هذا الساحل إلى حركة عنيفة للمد والجزر وقد يصل الفارق من أدنى مستوى للماء والخط الذي يحدد أقصى حد للمد بحوالي ٤٠ ياردة. يكون جانب من حاجز الماء وذلك عندما ينخفض مستوى الماء، مرتفعاً وجافاً أو تحيط به مياه ضحلة جداً، وحتى عند الطرف البعيد، حيث كنت أستحم عند مدرج الهبوط، فقد كان البحر ضحلاً مع وجود طين متين في القاع وعليه بعض الأعشاب البحرية. كانت ذروة المد في هذا الوقت تقع عند غروب الشمس وكانت أدنى درجات الجزر تحدث بعد ١٢ ساعة لاحقة.

جذب صخب شديد انتباهنا ناحية البلدة، عندما كنت أنا وصالح النفيسي عند القلعة عصر يوم العيد مستندين على حاجز السقف نراقب صفوف الجمال غير النهائية، وهي تعمل بنشاط بين البلدة وبين الآبار على رأس المجرى. ويعود سبب الصراخ إلى اشتعال النيران في مجموعة من العشش التي تقع على الجانب القريب من البلدة ومن أسفلنا، وسرعان ما انتشرت النيران والدخان في كل الموقع. ولم يستغرق وصولنا إلى موقع الكارثة وقتاً كبيراً، ولعل النار قد شبت من شرارة انطلقت بإهمال من أحد المطابخ، وحينما وصلنا إلى هناك كان ما لا يقل عن ١٢ عشة قد تدمَّر بينما يحاول حشد كبير من الناس وقف انتشار الحريق. لقد كان الوقت لا يزال عند بداية المساء لحسن الحظ.

وقد خمدت النيران تدريجياً داخل فجوة يغطيها جدار من اللبن، ولم يحدث ضرر كبير، غير أنني علمت أن تكلفة بناء هذه العشش الشبيهة بخلايا النحل كانت في حدود ١٠٠ إلى ١٢٠ ريالاً للعشة الواحدة وكان إجمالي قيمة ما قد فقده هؤلاء الفقراء هو ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ريال. لقد تم تحذيرهم في الروايات الشعبية من عدم عقوقهم والامتناع عن ميلهم بالاعتداء المتكرر على أطراف المقبرة المهجورة التي تقع على جانب التل، وقد استمعت خلال هذا الحشد إلى من يقول بالرأي بأن ضحايا هذه الكارثة قد نالوا ما يستحقونه من عقاب إلهي. كما كان هنالك التخوُّف من أن النيران قد تمتد إلى محطة اللاسلكي الحكومية في قلعة الأشراف المهجورة، وإن حدث هذا فإن مخزون الوقود لن يؤدي إلى تدمير المحطة فقط ولكنه سيزيد بشكل خطير حجم انتشار النيران. ولقد أمكن تجنب ذلك الخطر المحتمل، ولم تفقد أية أرواح ، غير أنني لم أكتشف ماذا حل بهؤلاء القوم الذين باتوا بلا مأوى ولو مؤقتاً.

وصلتني الدعوة في اليوم التالي، التي كان قد وعدني بها حسن البهكلي لحضور جلسة القات. لقد وجدت مضيفي وقد وجَّه الدعوة أيضاً إلى عدد كبير من الشخصيات الكبيرة في المجتمع المحلي لتناول وجبة الغداء التي كانت قد تأخرت، وذلك حين وصولي لمنزله، حيث وجدت شقيقه معه وقد حضر من صبيا. كانت وجبة الطعام قد انتهت عند الساعة الثانية ظهراً وبدأ اجتماع الأعضاء الكبار لنادي القات بحزم عند الظهيرة. كان عدد الحضور حوالي ٢٥ شخصاً وقد ضمتهم غرفة الاستقبال الطويلة الرئيسة التي انتشرت فيها سرائر الحبال المنخفضة ليجلس عليها الجمع. كما انتشرت النارجيلة، وكان يوجد حوالي الدستة منها، وكانت من أحجام مختلفة داخل الغرفة وذلك لاستخدام الضيوف لها، وقد وقع اختياري على واحدة خفيفة منها ومن الطراز الحمى بدلاً عن الطراز الثقيل (الجرك) وهي خليط من التبغ القوي إلى جانب عدد مختلف من النباتات العشبية العطرية. لقد انتشرت كذلك جرار المياه بالإضافة إلى الأسرة والنارجيلة في مواقع ملائمة ووضعت بجوارها الأكواب والكؤوس، وقد خصصت لي جرة معينة من مياه صبيا، التي يقال عنها إنها أفضل وأحلى من مياه آبار عمير. هكذا كان الإعداد لجلسة القات.

لقد تم إحضار لفائف الموز الضخمة وتم كشفها بينما كنا نتحادث ونحن جلوس فوق الأسرة. وقد تم فحص المحتويات بدقة وحذر. ثم قدم إليَّ طقم من الأوراق التي كانت قد اختيرت بعناية، وقد نال كل شخص آخر نصيبه منها ثم بدأت عملية المضغ. لم تكن هنالك مراسيم للحفل وكان كل فرد يتحرك على مزاجه، ويتحدث مع جاره أو أن يلزم الصمت برغبته، كان هذا هو الروتين اليومي لنادي القات، الذي كان يجتمع ظهر كل يوم عند الساعة الواحدة أو الثانية ظهراً حتى غروب الشمس. وكان كل عملهم هو فقط مضغ الأوراق العصارية وقد وُضِّحت لي كيفية ذلك.

وينصح بتناول جرعات صغيرة من الماء من حين لآخر ليظل الحلق رطباً وأثناء ذلك تدور فناجين القهوة على فترات، ويساعد هذا على إخراج الخصائص المقوية الكامنه للنبات. ويظل المرء وهو يمضغ الورقة باستمرار، ويبتلع العصارة ثم يلفظ على فترات الأنسجة المستهلكة في المبصقة. ويقال إن مدمنوا القات يدخلهم إحساس بالابتهاج أثناء هذه العملية، ويتبعها إحساس لاحق بالكآبة. ومضغ القات عادة تتملك المرء لدرجة أنه إذا لم يتعاطاه في أحد أوقات الظهيرة يدفعه هذا الحرمان إلى التوسُّل للحصول عليه، كما في حالة مدمن الحشيش. وبحكم الإجماع العام فإن هذه العادة خطرة، وسيئة على الأعصاب وتنتهي بصاحبها إلى الضعف. وكنت قد مارستها لمدة ساعتين في ذلك اليوم دون أي رغبة في الخوض في التجربة مرة أخرى ودون أن أحس بأي شعور قوي من أي نوع كان لذيذاً أم لا. يبدو لي أن مضغ القات هو كمضغ الحشيش وهذا هو كل ما يمكنني أن أدلي به نتيجة لتجربة واحدة والتي لا رغبة لي إطلاقاً في تكرارها.

لقد أصبحت أحداث الجلسة فاترة فانتهزت فرصة غريبة لأعتذر وأنسحب لأداء مناشط أكثر فائدة. لقد كنا جلوساً بهدوء لمضغ القات حينما وقع ضجيج فجأة وضوضاء بين النساء في الجوار. لقد اعتقدت بناءً على التجربة السابقة أنه قد شبَّ حريق مرة أخرى، غير أن الأمر لم يكن كذلك، لقد كان الأمر أسوأ من ذلك فقد تم احضار جثة لصبي على التو وسلمت إلى والدته في عشة مجاورة. وكانت هي التي بدأت الصراخ حينما رأت ابنها الميت، وفي لحظة التقطت كل امرأة على مدى السمع الصراخ، واشتركت كل امرأة في كورس النياح. لقد أصبح منزل تلك المرأة المنكوبة منذ تلك اللحظة قبلة أنظار لكل امرأة في البلدة. ويتواصل الصياح مع وصول كل وفد من الزوَّار، وبقوة شديدة وكأنما قد واجه

العالم كله نهايته السيئة. لقد كان الأداء مدهشاً ولا بد أنه كان محنة كبيرة على والديَّ الصبي، واللذين سيكونان قد لحقتهما إهانة بالغة إذا تركا لمصيبتهما يحتملانها في سلام. لقد أحضر الصبي وهو ميت. وكان قد ذهب في الصباح في صحبة الجمال لإحضار الماء من الآبار، ووجد ميتاً على جانب الطريق. كان هذا هو كل ما في الأمر. ولا يوجد ما يكشف عن كيفية حدوث ذلك، ولا يوجد ما يمكن عمله غير دفن الصبي على أنغام عويل جماهيري. وكان كل ما يمكن إيضاحه هو أن الصبي قد يكون قد سقط من على ظهر جمله، ولا يوجد طبيب في جازان للقيام بتشريح للجثة لمعرفة السبب الحقيقي للوفاة.

ذهبت لأداء صلاة الجمعة (١٨ ديسمبر) في أول أيام إقامتي القصيرة في جازان في الجامع، وهو مبنى كبير ورائع وقد تم إنشاؤه حديثاً، وتكفلت أسرة البهكلي بذلك. يقع المسجد عند منتصف المسافة بين حاجز الماء وقلعة الأشراف القديمة وكان بناءً كبيراً، ويتم الدخول إليه عن طريق أبواب على جانبيه الشرقي والغربي والتي كانت تقود المصلين إلى ساحة مكشوفة تحتل ما يقدر بثلث البناء. كانت بقية البناء مغطاة بصف من الأعمدة الجذابة، مكون من خمسة أروقة تمتد طولياً مرتبة من الشرق إلى الغرب، ومن أربعة أروقة في العمق مرتبة من الشمال للجنوب، مع وجود قبة عريضة تعلو كل رواق. ولقد كانت كوة المحراب عند الجدار الخلفي على الجانب الشمالي، ويوجد بها منبر خشبي مترنح للخطيب. كان المسجد هو البناء البارز في البلدة بلا شك والتي كانت منازلها المبنية آيلة للسقوط وليست ذات قيمة فنية معمارية. إن جازان في شكلها المعاصر، هي مدينة حديثة، برغم أنها كانت قرية لصيد الأسماك، ومركزاً لصناعة الملح عبر القرون حينما كانت العشش الشبيهة بخلايا النحل كافية لإيواء السكان. كان أقدم مبانيها هو

قلعة الأشراف، وحتى هذه فهي الآن في حالة مدمرة وكثيرة الرقع، ولربما لا يزيد عمرها عن القرن الواحد بينما يعود تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر(١).

يقترح العالم المحلي تفسيراً غريباً لاسم جازان والذي ينطق أحياناً جَيْزان. ويعتقدون حسب رأيهم أن جازان نطق أفسد الكلمة الأصلية جازان، والتي تسجل حقيقة إنشائها بواسطة مجهول ومشكوك فيه، وبطل من أبطال الماضي الذي «جا» ثم «زان» والتي يكون لشرحها لتعني «هو جاء وهو بنى»، ويبدو الأمر بسيطاً، ولربما خيالي تماماً، ذلك لأن الاسم قابل لاشتقاق آخر أكثر قرباً من الطبيعة. تغطي ساحل البحر على جانبي النتوء تلال رملية وسلاسل رملية من الطراز الذي يسمى «قوز»، ويحفظ العديد من هذه التلال الرملية بهذا المعنى كجزء من أسمائها، فمثلاً «قوز المنجارة» عند حافة مسطح الملح في الدلتا. و«قوز» يجمع على «قيزان» وتخفيف «القاف» الثقيل إلى «جيم» الخفيف هو ظاهرة مألوفة في الجزيرة العربية مثال ذلك «خرج» بدلاً من «خرق» و«جاسم» بدلاً عن «قاسم». وعليه، تكون جازان بدلاً عن قيزان وتحل بذلك المشكلة. لقد عرضت هذا التفسير على الأمير وعلى غيره، إلا أنني لست متأكداً تماماً بأنهم قد اقتنعوا به(٢).

يرجع أصل الأمير محمد بن ماضي إلى قرية الروضه في منطقة سدير التابعة لنجد. لقد كان رجلاً عظيماً ضخماً ذا سمات مستبشرة، وهو رجل عمل أكثر منه فيلسوفاً، وكثير الشفقة تجاه الفقير والضعيف، ويبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً

(١) يبدو أن قوز الجعافرة، ليس بالبعيد ناحية الشمال، وهو أقدم موقع للقرية.

يعد قوز الجعاقرة هذا أقرب مكان إلى مدينة عثر الأثرية التي كانت ميناء مدينة جازان قديماً حتى إندثارها. (المراجعون).

(٢) ورد ذكر جازان عند اليعقوبي (ت ٢٧٨هـ) حيث أطلقه على الساحل والوادي، كما ورد ذكر المدينة أو القرية في القرن السابع الهجري باسم جازان (المراجعون).

وقد كان حاكماً من قبل على ضبعة التي تقع على ساحل الحجاز الشمالي، حيث خلفه هناك شقيقه تركي، حينما تم نقله هو إلى جازان وذلك حوالي عام ١٩٣٦م. لقد كان سلفه واسمه شويعر[١] قائداً لقسم من جيش الأمير فيصل، وذلك أثناء الحرب اليمنية عام ١٩٣٤م وقد تم تعيينه بعد ذلك ليكون مسؤولاً عن هذه المنطقة الحدودية المهمَّة، وقد توفي وهو يشغل هذه الوظيفة، مخلفاً زوجته وطفله الصغير. لقد قام محمد بن ماضي في سبيل التخلص من أسرة سلفه هذه وذلك بزواجه من الأرملة وتبني الطفل، وبذلك حل لنفسه مشكلة السكن واستقرَّ في منزل مريح بمجرد وصوله. لقد وجد أن هذه الترتيبات كانت مقنعة جداً كما حافظ على مستوى مائدة ممتاز، والتي كنا نتردد عليها عند كل مواعيد الوجبات الرئيسة اليومية خلال فترة إقامتنا هنا. لقد كان محمد يعامل الطفل الصغير وكأنه ابنه، وكم سرني إحساسه وقلقه على سلامة ورفاهية هذا الطفل، الذي كان جذاباً وفاتنا.

كان كل من محمد والقاضي كثيري المساعدة وفائقي اللطف نحوي ونحو فرقتي، وكثيراً ما كنت أجد محمداً وهو على استعداد بما لديه من خطط لتنفيذ تجولاتي بينما أصبحت جازان هي مركز الرئاسة لي. لم يسمح محمد بالتأكيد للعشب أن ينمو تحت قدميه ولم أكن مستقراً في جازان - التي جئتها في ثلاث مناسبات فقط - مدة أطول تجعلني أملّ البقاء فيها. لقد كنت مقيماً، في المرة الأولى مثلاً في هذا المكان مدة خمس ليال فقط، حينما كانت كل الترتيبات جاهزة للمرحلة التالية للعمل، وفيما يخص هذا العمل فقد كانت لدى الأمير التوجيهات الكاملة من الرياض. كما لا توجد مزايا محددة في محمد بن ماضي، إلاَّ أن فطرته السليمة في الحكم على الأشياء كانت مثيرة للإعجاب. يبرز هو ومعه

(١) الصحيح أن اسمه هو حمد بن شويعر.

إبراهيم النشمي التابع لنجران في شريط ذكرياتي للطفهما ولكفاءتهما، ولقد كان كرمهما خارج إطار اللوم، وكثيراً ما كنت أعجب لما عليه ترتيباتهما المالية مع الحكومة. إذ إن مرتب الحاكم – حسب ما استطيع من تأكيد له – لمحافظات مهمة مثل أبها ونجران وجازان يصل إلى ١٦٠٠ ريال –٨٠ جنيهاً استرلينياً ذهبياً– شهرياً، والتي عليه منها أن يتحمل التكاليف المالية لحاشيته التي يتراوح عدد أفرادها بين ٢٠ و ٣٠ رجلاً، بينما يتحصل الرجال على ٢٠٠ ريال في السنة كمرتب لكل فرد، إلى جانب ما يحرك أسنانهم.

قمت بزيارة الأشقاء البهكلي وأهله في منزلهم للوداع، وذلك في عصر اليوم السابق لبداية رحلتي إلى فيفا. وقد وجدت من بين المدعوين السيد عبيد الإدريسي. وكانوا قد اجتمعوا لحفل القات. لقد تحدثنا عن زيارة روزيتا فوربز Rosita Forbes إلى جازان قادمة من السودان بواسطة الدهو –مركب شراعي– عام ١٩٢٢م، حيث أعدَّت لها مقابلة مع محمد الإدريسي قبل وفاته بأشهر قليلة. ويبدو أن هذه المقابلة قد تمت في الميناء، إذ أنها لم تقم بزيارة أيّ من صبيا أو «أبو عريش». كان هذا هو كل ما تذكره مضيفي على أي حال، وغيره من الذين كانوا يتذكرون سفرها بحراً إلى ميدي. لقد جاء السيد ماكسويل دارلنج Maxwell Darling أثناء استكشافاته الخاصة بالجراد، عبر صبيا إلى جازان في مارس ١٩٣٦م، بينما وصل إلى جازان عبر صبيا أيضاً مهندسان تابعان لشركة الزيت العراقية، وهما السيد بايك Pike والسيد والفورد Walford، وهما في طريقهما إلى جزر فرسان وكان ذلك أثناء زيارتي لهذه الأجزاء، وذلك لقيامهما بدراسة لكل الطريق على محور البوصلة دون أن يتأكدا من صحة أسماء الأماكن في البلاد التي قد قاموا بمسحها. لم يتغلغل أي رحالة أوروبي إلى أعماق تهامة عسير مطلقاً قبل نهاية الحرب العظمى. وكما لوحظ مما قد ورد أعلاه، فإن الزوار الأوروبيين

للمنطقة لم يكونوا كثيري العدد خلال فترة الجيل الماضي، غير أن إنشاء طرق السيارات وحركة مناشط مهندسي المعادن[١] قد يتوقع منها أن تجعل هذه المناطق النائية للجزيرة العربية معروفة أكثر مع مرور الأيام. ومن المناسب الإشارة إلى زيارة كانت قد تمت إلى جازان قبل قرن من الزمان من وقتنا هذا.

لقد وصل إلى جازان -عن طريق البحر- في الرابع من مارس ١٨٣٥م فرنسيان هما إي. كومبس E.Combes وم. تاميزييه M.Tamisier إلى محافظة أبو عريش الصغيرة. لقد انخفض حجم التجارة، التي كانت ذات اعتبار كبير، منذ أن أسس محمد علي باشا نظام احتكار السلع على كل المنتجات العربية، خاصة السنا والبن. لقد احتلت البلدة برغم صغرها، مساحة كبيرة تغطيها مبانيها المبعثرة. يوجد في الناحية الجنوبية حصن مهيب تحيط به مبان عديدة مدمرة. وكانت المساكن في هذا الوقت من عشش مستديرة ذات أسقف هرمية وغطاء طيني كثيف من الداخل، وكانت مؤثثة فقط بالأسرة والفخار المنزلي. ويحيط بكل مجموعة من العشش سور من الأعواد الخشبية مكونة عالماً بحاله.

لقد كان حال نساء البدو اللاتي يقمن بزيارة جازان مختلفاً كثيراً عن أولئك اللاتي كنا قد عرفناهن في أماكن أخرى، فالنساء هنا غير محجبات ويرتدين أسماقاً زرقاء وقبعات من القش على رؤسهن. وكانت نسوة البلدة أيضاً غير محجبات، وكن يرتدين أزياء كتلك التي ترتديها النساء في القنفذة، وكان القليل منهن يضعن قميصاً إضافة إلى القماش الطويل والعباءة والقناع كما هو الحال في تلك المنطقة. وكن يقمن بتصفيف شعورهن إلى أربع خصلات رشيقة تصل إلى

(١) قام بزيارة المنطقة العديد من الخبراء الأوروبيين والأمريكيين في ذلك الوقت. (المؤلف).

الكتف، ويضعن أكاليل الأزهار والأعشاب العطرية على جباههن. كان الرجال يرتدون أغطية رأس صوفية ويصففون شعورهم بعناية كبيرة وبالكثير من الدهن. كان السوق المحلي مكوناً من متاجر شحيحة البضائع تقوم ببيع الدجاج بأسعار منخفضة جداً وأحياناً تقوم ببيع الفاكهة والسمك. وكانت الحدود الحجازية اليمنية في هذا الوقت عند رأس حلي.

كما لوحظ أن الأمطار الموسمية في اليمن تسقط في الفترة من منتصف يونيو وحتى نهاية سبتمبر. وكان هنالك ندى كثير خاصة على الساحل. كما اشتمل إنتاج اليمن على الدخن والشعير والبن والتبغ والمر والبخور... إلخ. كانت حمير اليمن كبيرة الحجم وقوية، وكانت الحيوانات المفترسة نادرة، وحيوانات الصيد متوافرة. كانت هنالك معادن للحديد والملح الصخري، والكبريت، والرخام السماق. وكان الخشب شحيحاً وأما بعر الإبل فيستخدم وقوداً للنار[1]. لقد أمضى المسافران الفرنسيان ساعات قليلة في جازان، ثم واصلا رحلتهما إلى بندر اللحية اليمنية التي تقع شمال الحديدة.

(١) يسمى الجَلَّة. (المراجعون).